الحمد لله رب العالمين ، القائل في محكم التنزيل : ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [المجادلة : 11]
و الصلاة و السلام الأتمّان الأكملان على خير خلقه ، و صفوة بشره ، القائل : " من سلك طريقاً يلتمس به علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة " .

و بعد :

فإن من أجلِّ العلوم قدراً ، و أرفعها شأنا ، و أعظمها منزلة ، و أسماها مكانة ما يتصل بسبب إلى القرآن الكريم ، و البلاغة العربية التي نشأت في سامق بيان النص القرآني ، و وارف ظلّه تجاوزت آصرة السببية البعيدة إلى أصل النشأة و الوجود ، كعلم قائم بذاته ، له ضوابطه و قواعده و مقوماته ، لتتجلى هذه الرّابطة القويّة المتأصّلة بين البلاغة العربية و القصّة القرآنيّة ، و ليكون ذلك منطلقا عاماً تتبارى فيه أذهانٌ ترنو للأصالة و الجدّة ، و تشرف بمُدارسة البيان المعجز الخالد ...

هذا و تحظى اللغة العربية بقدرة بيانية و تأويليّة فائقة ، تتميّز بها بين اللغات ، في مجال استنطاق دلالات النصوص و تجسيد جمالياتها و كشف لطائفها و أبعادها ، إنْ من جهة أسرارها الدلاليّة المختلفة ، و إنْ من جهة بلاغتها الراقية و خصائصها البيانيّة ، و تلك مزايا ينفرد بها اللسان العربي المبين ﴿ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً وَهَذَا كِتَابٌ مُصَدِّقٌ لِسَانًا عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرَى لِلْمُحْسِنِينَ ﴾ [الأحقاف : 12]، الذي يُعد إطاراً مثالياً لاحتضان النص و ايفائه حظاً وافراً من الدراسة ... و هذا ما بوّأه مكانة عالية بين الألسنة ، إذْ كان به نزول القرآن الكريم المعجز على مستويات اللفظ و المعنى و التركيب و الدلالات .

و إذا كانت قيمة ما يكتب أو يقال ترجع إلى ما يفيده من معنى ، فإنّ هذا المعنى لن تتضح معالم قيمته إلاّ من خلال صياغته التعبيرية ... فالمعنى شيءٌ مبهم في نفس من يريد التعبير عنه ، حتى يهتدي إلى الصياغة التي تتوالى فيها الألفاظ بترتيبٍ معين و علاقات متّسقة و نسق تصويري مختار ، ليصير لهذا المعنى وجودٌ حقيقي ، ينفذ إلى العقل و الوجدان معاً .

ولمّا كان النص الشرعي و القرآني منه على الخصوص معجزاً في ألفاظه و تراكيبه و معانيه و دلالاته ، جاءت الألفاظ فيه دالّة بالتمام على ما وُضعت له ، مُختارةً في ذاتها ، و مختارةٌ لها مواضعها ، إذْ لا يستقيم المعنى لو جِيء بغيرها في موضعها ، لأنها تدلّ على مقاصد بعينها لا يكون التعبير عنها إلاّ بذلك الاختيار القرآني المتميّز .

و لا يتصدّى لمثل هذا النص المعجز إلاّ اللسان العربي المُختار له ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ ﴾ [النحل : 103] ، و لا يكون الكشف عن دلالات التركيب و تحديد سياقاتها إلاّ وفق بلاغة العرب التي سلكها المفسرون من قبل و لا يزالون ، من أجل الوقوف على الأسرار الكامنة في هذا الكتاب الخالد عبر الزمان و المكان ، و استكشاف تلك الدُّرر المخبوءة بين آياته الحكيمة، من ألوان المعاني و الدلالات المتعدّدة ، و أشكال البيان و الصور المتجدّدة..

و من البيان القرآني تبرز الصورة بكل أنواعها لتترك في النفس أثراً بالغاً ، فضلاً عن بلوغ المراد من نص الآية ، و قد خصها أئمة اللغة العرب ببالغ الاهتمام ، إذْ يقول الزمخشري و هو يتحدث عن أثر التشبيه في تصوير المعاني و ما يقوم به من

تشخيص ، و ما تحدثه تلك الصور في نفس متلقيها : " و لضرب العرب الأمثال ، و استحضار العلماء المثل و النظائر ، شأنٌ ليس بالخفي في إبراز خبيّات المعاني ، و رفع الأستار عن الحقائق ، حتى تُريك المُتخيّل في صورة المحقق ، و المتوهم في معرض المُتيقن ، و الغائب كأنّه مُشاهد ، و فيه تبكيتٌ للخصم الألد ، و قمع لصورة الجامح الأبي ، و لأمرٍ ما أكثر الله ﷻ في كتابه المبين ، و في سائر كتبه أمثاله ، و فشت في كلام رسول الله عليه السلام و كلام الأنبياء و الحكماء " [الكشاف 54/1] ، و ما هذا الذي قاله صاحب الكشاف إلاّ غيض من فيضِ ما لأئمة البلاغة من آراءٍ حول قيمة الصور البيانية و أثرها في استجلاء خبايا و لطائف التنزيل الحكيم .

من هذا المنطلق و رغبة منا في البحث عن أسرار النص القرآني من ناحية دلالته و بلاغته المتميزة ، آثرنا أن نتناول في مذكرتنا دراسة دلالية بلاغية للصورة على اختلاف أنواعها في القرآن الكريم ، علماً أنّ مجال الصورة واسع ، غير أنّ تركيزنا سيكون حيث يتجلّى البعد الدلالي للصورة ، مستعينين في ذلك بعد عون الله ﷻ ، بعدد من التفاسير منها : في ظلال القرآن لسيّد قطب ، و التحرير و التنوير للطاهر ابن عاشور ، و روح المعاني للألوسي ، و تفسير المنير للزّحيْلي ، و الكشاف للزمخشري و تلخيص البيان في مجازات القرآن للشريف الرضي و غيرها من التفاسير التي تهتمّ بالجانب البياني .

الإشكاليّة :

لا يخلو البحث في النص القرآني من الحديث عن دلالاته و استعراض بلاغته ، على اعتبار أنه أخصب نصٍ ، و أوسع مجالٍ للبحث في علم الدلالة و البلاغة على حدٍ سواء ، هذا و أنّ الصورة القرآنية من أعظم الأبواب التي يتجلّى فيها الإعجاز البياني

، و أثقلـها حمولـةً إنْ من حيث دلالتـها أو من حيث لطـائفها البلاغيّة ، و قد عمدنـا في هذا البحث إلـى معالجـة مجموعة من الاشكـالات نطرحـها فيما يأتـي :

فيمَ تتجلّى القيمة الدلاليّة و التأثيريّة للصّورة في العربيـة عموماً ؟ و كيف تبلور مفهوم الصّورة من التراث العربي إلى النقد الحديث و المعاصر ؟ و مـاهي سمـات القصّـة القرآنيـة ومـا أهدافـها ؟ و مـا دلالـة الصـورة في القصص القرآني ؟

الأسباب الموضوعية و الذّاتية لاختيار الموضوع :

إنّ اختيار هذا الموضوع للدراسة يرجع إلى أسباب موضوعية و ذاتيـة يمكن تلخيصها فيما يلي :

- أنّ هذا الموضوع من أَجَـلِّ ما يصرف فيه طالب العلم وقتـه و جـهده ، لأنّـه مرتبطٌ بكتـاب الله ﷻ ، و هو أعظم ما توجّهت إليه الأنظار و صُرفت فيه الأعمـار .
- أنّ في دراسـة المفسّرين و علمـاء اللغـة و البلاغـة و الأصـول ما يضيفُ جديداً في مجـال الدلالـة ، و ذلك من خلال وقوفهم على مقـاصد الآيـات و معـانيـها ... كمـا أنّنـا نجد في كتب التفسير بلاغـةً لا نجدها في كتب البلاغـة ، لأنّ التفسيـر تحليـلٌ و فـهم و تذوّقٌ و هذا مربط الفرس في بحثـنـا .
- كـون الأسلوب التصويري في القرآن الكريم يكشف عن دلالات متنوعـة للنصـوص جديرة بالبحث و النظر ، لمـا تنطوي عليـه مختلـف الصـور من الأسرار ، كمـا أنّ منـهج التصويـر – بكل أشكـاله – من أعظم أسـاليب القرآن ، و هو سرٌ من أسـرار بلاغتـه ، و وجـهٌ من وجوه إعجـازه .
- رغبتنـا في استكنـاه دلالات النصـوص و بيان أبـعـادها و أسرارهـا ، و ذلك من خـلال البحث في الإيحـاءات و الدلالات الخفيـّة التـي يتم استجلاؤها من وراء النصـوص ،

حتى يُعطى النص حقَه من الدراسة و يتم بذلك إدراك المغزى منه ، و هذا ما أردناه في مثل هذا الموضوع .

- و يكفي من الدوافع أن يقف الدارس أمام آية واحدة ليتأمل خصائص بنائها ، و دلالات تراكيبها ، لأن الكلام كلام الله فهو غير مخلوق ، و الدارس له ، و المتأمل فيه مخلوق ...
- وضع سهمٍ من سهام الخير ، و المشاركة في تلك التجارة الرابحة التي لا تبور .

المنـهـج المتـّبـع في البحث :

كان اعتمادنا في عملنا هذا على المنهج : الوصفي – الاستقصائي متمثلاً في تتبّع الأساليب البيانيّة في النص القرآني ، حيث توجد الصورة بما لها من أثر في دلالة النص ، و هذا يشمل كلَّ أنواع التصوير .. ، كما سلكنا المنهج التحليلي في دراسة النماذج التصويرية اعتماداً على التفاسير التي سبق ذكرها .

الـدّراسات الســابقــة :

لقد سبقت بعض الأعمال و الدراسات في مجال التصوير و لعل أبرزها " التصوير الفني في القرآن الكريم للمرحوم الشهيد سيد قطب " الصادر منذ أكثر من ستة عقود ، و ما جاء من بعده من دراسات لم يكن سوى قراءات في هذا الكتاب أو إعادة مباحث منه ، و لم أقف – في حدود اطّلاعي على الموضوع – على دراسة للصورة في القصص القرآني عموماً و لا في قصة موسى خصوصاً ، فكانت جُلّ دراسات التصوير في القرآن عبارة عن نماذج متفرقة تحمل " لمسات بيانية في نصوص من التنزيل "

للدكتور فاضل صالح السامرائي ، فلم يتمكّن النقاد المعاصرون من الولوج إلى عالم الصورة و التصوير في القرآن الكريم ، وانحصرت بذلك محاولاتهم في الشعر و النثر .

الصـعوبـات :

– من أكبر الصعاب و أخطرها هو كون مدونة البحث في القصص القرآني ، فلا مجال فيه إلاّ للعلم المستند على الأدلّة ، و القول الذي يتحرى أقصى درجات الصواب ، مع محاولة الأخذ بحظٍ وافرٍ في جميع علوم اللغة و اللسان ، و الوعي التام بالقضايا العقدية ، و الحذر من مزالق بعض الفرق و النحل الإسلامية ، حتى يكون المرء على بيّنةٍ و بصيرة أثناء استخراجه لأنواع الصور بالاعتماد على مختلف التفاسير ، و الله نسأل العفو عمّا وقعنا فيه من زلل .

– كما أنّ موضوع " الأبعاد الدّلالية للصورة في قصص القرآن الكريم " في حدّ ذاته مرتبط بعلوم متشعبة تجعل الربط بينها – في مذكرة يحدّها الزمن من جهة و الكمّ من أخرى – من الصعوبة بمكان .. فقد حاولنا الربط بين مبحثٍ نقدي " الصورة " و مبحثين يتعلّقان بالقرآن هما " القَصَص و التفسير " ضمن دراسة " دلاليّة " تكون فيها أركان البيان " البلاغية " مفتاحا لتحليل تلك الصور .

– إنّ عملاً كهذا يتطلّب جهداً دؤوباً و وقتاً كافياً ، و قبلهما توفيق و تيسير من الله ﷻ ، و قد كانت توجيهات الأستاذ المشرف الدكتور عبدالعليم بوفاتح – أثابه الله عنّا خير الثواب – مصباحاً أنار لنا أحلك دروب هذا البحث .

أهميّـة البـحث :

– إبـراز مفـهوم الصـورة في النـقد و استجلاء هذا المفـهوم في القصص القرآني .

– الكشف عن بعض مواطن الجمـال في قصص القرآن الكريم ، و بيـان خصـائص تلك الجماليات من خلال استقـراء مشـاهد التصـوير فيـها .

أهــداف البـحث :

– خـوض غمـار البحث العلمـي ، مع التنقيب و التدقيق في جمـع الصـور البيـانية التي وردت في قصـة موسـى عليه السلام و ما تضفيـه من تصـوير .

– المسـاهمـة في التأكيد على إعجـاز القـرآن بنظمـه و تأليفه .

خطّــة البحــث :

كسـائر البحـوث الأكـاديميـة جـاء البحث ضمن إطـارٍ منـهجـي تتقدمه مقدمـة ، يليـها تمهيد حـول أهميـّة الدلالـة في بلاغـة العرب .

ثم فصل أول بعنـوان " الصـورة و دلالاتـها بين القدمـاء و المحدثين " تندرج تحتـه ثلاثة مبـاحث ، أولـها " مفـهوم الصـورة و قيمتـها " ، و ثـانيـها " دلالات الصـورة في التـراث العـربي" ، أمـا الثالث من المباحث فتحت عنـوان " تطـور دلالات الصـورة في النقد الحديث"

و جـاء الفصل الثـاني بـعنـوان " دلالـة الصـورة في القصص القـرآني" ، انسدلت عنـه ثلاثة مبـاحث أيضـاً ، كان أولـها " الصـورة الفنيـّة في القرآن الكـريم " ، أمـا ثـانيـها "القصص القرآنـي" ، و ثالث المبـاحث بعنـوان " التكـرار في القصص القرآني "

و كـان الفصل الثـالث " دراسـة دلاليـة تطبيقيّـة للصورة في قصّـة موسى عليه السلام " في مبحثـين أولـهمـا " بين يـدي قصـة موسـى عليه السلام " وكـان عبـارة عن دخـول في جـو المدونـة فعرضنـا فيـه مراحل سير القصـة في مختلـف مواقعها في الكتـاب العزيـز ، أمـا المبحث الثانـي فكـان تحت عنـوان " الأبعـاد الدّلاليـّة للصورة في قصّـة موسى عليه السلام " و قد كـان محـاولةً تطبيقيّـة لـدراسـة الصّـورة و توضيـح أبـعـادها .

و خلُص البحث في خاتمته إلى مجموعة من النتـائج ، كمـا سجّـل بعض التـوصيـات للسيـر في هذا المسلك البديع و المبحث الشـريف .

هـذا ما تيسّـر بعـون الله إعـداده ، و تهيّـأ بفضـل الله إيـراده ، والله نسـألُ التـوفيق و السّـداد .